أهميـة المعارض اقتصاديا واجتماعيا

لحضرة صاحب السعادة فؤاد أباظه باشا

مدير عام الجمعية الزراعية الملكية

طلبت الى مجلة الشؤون الاجتماعية أن أكتب عن أهمية المعارض اقتصاديا واجتماعيا .

وانى أتشرف بتلبيـة الدعوة ، جاعلا موضوعى مبنيا على ما حدث فعـلا فى المعرض الزراعى الصناعى الذى أقامتـه الجمعية الزراعية بجزيرة القاهرة من ١٥ فبراير الى ١٥ أبريل سنة ١٩٣٦ — وكان موعد إقامة المعرض بعده فى مثل هذا الموعد من السنة الماضية إلا أن أحداث الحروب قد أجلته خمس سنوات أخرى فيكون موعده القادم فى أوائل سنة ١٩٤٦ إن شاء الله .

أما من الناحية الاقتصادية فقد جمع المعرض فى ساحة واحدة متقاربة الجنبات مئات العارضين من الزراع والصناع و التجار . والإنسان مطبوع على حب الترق والتقليد لما هو حسن ، فأتيحت الفرصة لكل منهم لكى يقارن بين ما عنده وما عند غيره ، وما وصل إليه وما وصل إليه غيره ، ولا شك أن الزراعة والصناعة والتجارة وكل مظهر من مظاهر النشاط الاقتصادى تتأثر بالبيئة تأثرا واضحا . ومصر على الرغم من أن تعـداد سكانها يبلغ نحو السبعة عشر مليونا إلا أن رقعة أرضها ممتدة امتدادا كبيرا ، ومناخها و إن تقارب إلا أنه مع ذلك يختلف إلى حد يسمح باختلاف الأساليب فى الزراعة والصناعة والتجارة من إقليم إلى إقليم ، وقد يتفق الزارع من أهل الصعيد عمره دون أن تتاح له فرصـة للاتصال عن قرب بالزراع من أهل الوجه البحرى والتعرف على أساليبهم وتقاليدهم فى الزراعة ، وما قيل عن الزارع يقال عن الصانع وعن التاجر ، فقد أتيح لكل منهما أن يتصل عن قرب بإخوانه وأقرانه من مختلف أنحاء مصر ، وأن يرى نتاج تفكيرهم وسعيهم معروضا على مقربة منه .

ولقد كان هذا التجمع عظيم الفائدة من غير ريب لأنه ساعد على تحسين الوسائل العتيقة والأخذ بالوسائل الجـديدة ، وساعد على التقريب بين مختلف نواحى الإنتاج فى البـلاد وتنسيقها تنسيقا لا شك أنه يعود بنتائج كثيرة طيبة على الأفراد أولا ثم على المجموع أخيرا .

وهكذا أفاد المعرض فى أنه بعث روح المنافسة الشديدة بين الطوائف المنتجة فى البلاد ، وأتاح لها الفرصة لتبادل الأساليب والأخذ بأفضلها نتيجة وأكثرها فائدة .

كان كثيرون من المصريين وعلى الأخص من أفراد الطبقات الغنية الذين يعيشون فى المدن يجهلون الكثير عن تقدم الصناعة فى بلادهم ، وكانوا يعتمدون فى شراء حاجياتهم على المتاجر الأجنبية والمصانع الأجنبية ، إما تظاهرا منهم بالثروة والتمدين الأوروبى ، أو رغبة فى أن يقال عنهم إنهم من طبقة عالية ، و إما اعتقادا منهم أن المصنوعات المصرية لم تبلغ درجة الإتقان المطلوبة . شاهد هؤلاء بأعينهم فى المعرض الزراعى الصناعى لسنة ١٩٣٦ نماذج ناطقة بمقدار ما بلغته الصناعة المصرية من تقدم وما حققته من إتقان . وشعروا أن المصلحة الخاصة قبل المصلحة الوطنية الصحيحة ، تناديهم بتشجيع الصانع المصرى والتاجر المصرى ، وتشجيع المصنع المصرى والصناعة المصرية .

على أن غمط الصناعة المصرية حقها لم يكن مقتصرا على أفراد هذه الطبقات الغنية فحسب . ولكنه كان يمتد إلى فريق كبير من الطبقات المتوسطة ، ولم يكن السبب فى انصراف هذ الفريق عن الصناعة المصرية إلا عدم معرفته بوجودها أو عدم اطمئنانه إلى جودتها و إتقانها ، ومن ثم كان ينصرف إلى الصناعة الأجنبية يفضلها على غيرها ويشترى منها حاجاته ، وكان يعد شراءه بعض حاجاته من الصناعة المصرية بمثابة تضحية ، يبررها أحيانا بالرغبة فى تشجيع عمل وطنى .

جاء معرض سنة ١٩٣٦ فبدد كل هذه الشكوك ، وأثبت للجميع بأدلة ناطقة محسوسة أن كل ما ألصقوه بالصناعة المصرية والصناع المصريين كان تجنيا .

ويمكن أن نعد — دون مغالاة — معرض سنة ١٩٣٦ البداية الصحيحة لاستقرار الصناعة فى مصر . نعم إن معرض سنة ١٩٢٦ ومعرض سنة ١٩٣١ قد شمل معروضات كثيرة للصناعة المحلية ، ودلا لمن كان ينظر للأمور بعمق حينئذ على أن هذه الصناعة لا بد بالغة مرحلة الاستقرار والتوطد قريبا . ولكن كانت هناك أعين كثيرة تنظر بريبة . فلما جاء معرض سنة ١٩٣٦ حقق نظر الفريق الأول وقضى على كل ريبة كانت تساور الفريق الآخر .

وما يقال عن الصناعة فى هذا الصدد يمكن أن يقال مثله عن الزراعة ، ولكن من طريق آخر . ولا شك أن شهرة مصر الزراعية شهرة عريقة ترجع إلى آلاف السنين فان يد النيل الساحرة قد أحالت صحراءها الجرداء منذ امتدت تجمع بين أعالى الوادى والبحر . فقيمة مصر الزراعية لم تكن يوما من الأيام موضع شك ، وخصوبة أرضها ظلت مضرب الأمثال منذ العصور القديمة ، ولكن الزمن يتطور ، وأساليب الزراعة تنتقل هى الأخرى من مرحلة إلى مرحلة ، وهى تخرج عن الأساليب القديمة التى كانت قائمة على التجربة والفهم المحليين إلى الأساليب العلمية القائمة على دراسة التربة والمناخ وتأثير المخصبات الكيماوية عليها وتنويع

الحاصلات طبقا لحاجات الأسواق . وقد احتوى معرض سنة ١٩٣٦ كثيرا مما يفيد فى هذه الوجوه جميعا .

وقد زاره مئات الألوف من الزوار من أقصى أنحاء مصر . وكثيرون ممن زاروه — كانوا يحضرون إلى القاهرة لأول مرة ، لذلك شعروا أنهم يلمحون جديدا يغاير ما درجوا عليه . وإذا كانت الأمية فاشية بين الكثرة الغالبة من الفلاحين ، فان عيونهم الفاحصة المدققة وقعت على عشرات المعروضات الزراعية ، وآذانهم المتفتحة استمعت لشرح الموظفين المختصين .

ولا ريب عندى فى أن أثر هذا وذاك كان عميقا فى نفوسهم . حملهم على أن يفكروا ويقارنوا بين ما يحصلون عليه من محاصيل باتباع أساليبهم القديمة وبين ما يمكن أن تنتج الأرض لو اتبع فى فلحها ما يشير به العلم وتوصى ابحاث العلماء .

ولست أزعم أنهم انطلقوا إلى قراهم يطبقون أساليب العلم على أرضهم ولكنى لا أشك فى أنهم بدأوا يفتحون آذانهم لكل ارشاد ، ويقبلون تجربة كل أسلوب جديد . وهذا فى نظرى بداية التطور الذى ننشده ، والذى نرجو أن نناع إليه يوما من الأيام وحينئذ تصبح الزراعة المصرية متمشية مع الأساليب العلمية قائمة على تجارب الباحثين .

كذلك فتح المعرض أذهانهم إلى أن الزراعة ليست انتاجا لمحاصيل زراعة فقط ، ولكن يمكن أن يتصل بها ، بل لا بد أن يتصل بها طائفة من الصناعات الزراعية تساعد على تحسين مستوى لكسب العام للفلاح وتحسين مستوى معيشته .

ولم يفد المعرض الزراع والصناع فحسب ، ولكنه أفاد الزراعة والصناعة ذاتهما فان تنسيق معروضاته على الصورة التى نسقت بها وإبراز مجالى النهضة المصرية أتاح للمسؤولين من رجال الحكم والاقتصاد والمال ، أن يلمسوا عن قرب وبصورة مجسمة النهضة المصرية فى بعض صورها وأتاح لهم أن يضعوا أيديهم على مكامن النقص والقصور فيها ومن ثم يضعون أيديهم على النواحى التى تحتاج الى التشجيع والعلاج والدفع الى الأمام .

كان للمعرض أثر واضح فى تحسين وسائل الإعلان عن البضائع وعن المنتجات الصناعية والزراعية ، وفتح أمام التجار بابا واسعا للدرس والتعليم والتجربة ، فهموا منه أن التاجر الذى لا يجارى الزمن تتوه تجارته ، وأنه لا يطلب من التاجر أن يكون أمينا ومجدا ومخلصا لعمله فحسب ، ولكن يطلب منه أن يحسن عرض سلعته على الناس ، وأن يخلق العملاء والزبائن حتى إذا لم يكونوا موجودين ، فلا يكفى أن تكون البضاعة جيدة الصنع ، معتدلة الثمن ولكن يجب أن ينقل الى الناس هذا الفهم وأن يغريهم بالشراء منه والاقبال عليه . وهذا الفن فى الاعلان يكاد يكون فنا جديدا فى مصر فان جمهرة التجار المصريين لا يكادون يعنون به

كثيرا وهذا على النقيض من التجار الأجانب الذين يرصد كل منهم فى ميزانيته مبلغا ضخما ينفقه فى مطالب الإعلان والدعاية لسلعته .

كان المعرض إذن مناسبة حسنة أوحت بهذا الاتجاه الى كثير من التجار المصريين ، وشاهدوا بالتجربة العملية أثر الإعلان فى ترويج البضاعة وتحقيق الربح .

وليس الاعلان بحسب ولكن حسن العرض . وأقصد عرض البضاعة وتنسيقها على صورة تجذب عين الشارى وتستأثر باهتمامه . والتجار المصريون فى هـذا أيضا متخلفون عن زملائهم الأجانب . ولكنهم شاهدوا فى المعرض كيف كان حظ التاجر الذى أحسن تنسيق بضاعته وأجاد عرضها أوفر من زميله الذى أهمل هذا التنسيق .

وقد أحللنا السودان ومعروضاته مكانهما بين معروضاتنا ، ونزل تجاره وزراعه وصناعه فى عاصمة وادى النيل مكرمين معززين ، وأقبل آلاف الزوار المصريين على معروضات إخوانهم السودانيين يرون فيها جديدا لم يكونوا يعرفونه ، ويرون فيهم اخوانا ربطت بينهم الطبيعة والتاريخ والدين والتقاليد برباط دائم لا تفصم عراه .

لقد أدى المعرض من هـذه الناحية فائدة جليلة ، وكسب من حيث توثيق علاقاتنا الاقتصادية بالسودان ما يعود بالخير علينا جميعا .

وهنا يطيب لى مرة أخرى أن أنوه بفضل حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون فى تحقيق هـذه الرسالة فان ارشاده السامى وتوجيهه الحكيم وعطفه الواضح على كل جهد فى سبيل توثيق العلاقات المصرية السودانية قد أثمر هذه النتائج الطيبة .

وأما من الناحية الاجتماعية فإنه لا يمكن فصل الاقتصاد عن الاجتماع ، وحيثما تحقق مصالح اقتصادية لا بد أن تنشأ أيضا مصالح اجتماعية . وحيثما تنشأ عوامل اقتصادية تتابعها أو تقترن بها نتائج اجتماعية . ولا عجب فى ذلك فان الاقتصاد هو تدبير المـال وتنظيم حركة الانتاج والاستهلاك ، والاجتماع هو سلوك الفرد فى اتصاله بالجماعة الصغيرة التى يعيش فيها و بالمجتمع الأكبر الذى ينتمى اليه . فالفرد هو قطب الدائرة فى الاقتصاد وهذا الفرد ذاته هو قطب الدائرة فى الاجتماع ، فأيما شىء يؤثر اقتصاديا لا بد أن يكون له عواقب اجتماعية والعكس صحيح أيضا .

و إذا كان من المسلم به أن المعرض كان له أثر حسن فى تحسين الإنتاج الأهلى فى الزراعة والصناعة ، ومن ثم فى زيادة دخل الفرد وتحسين مستوى كسبه سواء كان زارعا أو صانعا أو تاجرا ، فان هذا التحسن فى الدخل يؤدى حتما الى تحسن فى مستوى المعيشة ، ومن ثم فى الحياة الاجتماعية التى يحياها الفرد .

وقد كان المعرض فرصة طيبة جلبت الى القاهرة عشرات الألوف من الفلاحين من أهل القرى . وكثيرون منهم — كما قدمنا — كانو يزورون القاهرة لأول مرة فوجدوا حياة تغاير حياتهم ، ووجدوا مستوى من النظافة والمعيشة خيرا من مستواهم . وفى الفرد رغبة شديدة فى أن يتقدم وفى أن يبذل جهده لتحسين حاله وتقليد من هم أرقى منه . وهم لم يجدوا مستوى أفضل من حيث المعيشة فحسب ، ولكن من حيث الثقافة والفهم والنظام أيضا . ولاشك أن هذا كله كان له أثره فى نفوسهم . ولست أزعم هنا أيضا أن هذا الأثر قد بلغ من الوضوح مبلغا يمكن أن يلمسه الانسان ويحسه ولكن مما لاشك فيه أن هذ الأثر وجد ، وأنه كان حقيقة من الحقائق التى لا يسع المنصف الا التسليم بها .

كذلك كان للمعرض أثر آخر لعله أدق وأخفى ، ولكنه مثل سابقه وجد حتما . ذلك أن تجمع عدد كبير من المصريين من مختلف الأقاليم المصرية أتاح الفرصة لنوع من التعارف والتآلف يزيد من غير شك فى مضاء الروح القومية وفى التقريب بين مختلف طبقات الشعب ومختلف سكان البلاد من جميع الأقاليم القريبة والبعيدة .

ونحن حينما ننظر بعمق نتبين أن الشعوب الأكثر تآلفا وقومية هى الشعوب التى تتاح لها الفرص للتعارف والتجمع والتفاهم فى أوساط واحدة ومناسبات واحدة . واذا تقرر هذا فلا بد أن نذكر لمعرض سنة ١٩٣٦ هذه الفائدة . فقد كان أشبه بالمهرجان القومى منه بأى شىء آخر .

كذلك دل المعرض على ظاهرة من ظواهر التطور الاجتماعية فى مصر ، أو بتعبير أدق كان امتحانا لها . وأعنى بهذه الظاهرة احترام المرأة . فقد امتد المعرض نحو شهرين وزاره فى كل يوم عشرات الألوف من الشباب والفتيات والرجال والنساء — زارته كل طبقات الأمة المصرية فكان سلوك الشباب والفتيات والرجال داعيا الى الارتياح ، ودلوا بتمسكهم بالآداب القومية وحسن سلوكهم فى جميع المناسبات على أن المرأة المصرية قد أخذت فى تكوين شخصيتها وفى أن تصبح عاملا هاما فى بناء الجماعة المصرية . وقد اشتركت الفتيات المصريات فى أثناء إقامة المعرض فى مهرجان عيد الوطن الاقتصادى كما اشترك فريق آخر منهن فى الاشراف على معروضات مدارس البنات ، فكان سلوك هذا الجمع مدعاة للاغتباط .

من الناحية الثقافية يصعب مرة أخرى ونحن نتحدث عن آثار معرض سنة ١٩٣٦ ، أن نضع فروقا واضحة دقيقة لمختلف النواحى التى أثر فيها المعرض ذلك الأثر الذى اتجه فى الناحية الاقتصادية مثلا له مضاعفات — كما قدمنا — الناحية الاجتماعية . ونقول هنا إن الأثر الاجتماعى قد يصيب الناحية الثقافية فان هذه الظواهر أو النواحى مترابطة ومتشابكة ترابطا وتشابكا يصعب معه فصل أحدها عن الآخر . فإذا فعلنا ذلك هنا فانما نفعله من قبيل

التنظيم والتنسيق والرغبة فى الإحاطة . أما فى الواقع فان هذه الآثار جميعا أصابت الحياة المصرية فى شتى نواحيها . بدا بعضها واضحا غاية الوضوح وبدا البعض الآخر عميقا غاية العمق ودقيقا غاية الدقة ، حتى ليكاد الإنسان يخطئه ولا يراه مع أنه موجود لا شك فى وجوده .

والمعرض فى أصله زراعى صناعى ولكنه أتاح لآلاف الزوار فرصة طيبة لتوسيع ثقافتهم العامة والاحاطة بكثير من المسائل والموضوعات وجدت أمامهم معروضة أفصل عرض فاخذوا ماشاءوا من المعلومات بأيسر ما يمكن بذله من جهد .

ولم يكن زائر المعرض يخلو شأنه من أمرين فأما أن ما أمامه من المعروضات كان يهمه شخصيا أو يتصل بعمله أو مهنته أو حرفته وإما أنه لا يتصل بها . وهو فى الحالة الأولى يفيد درسا عمليا و يكسب فائدة تساعده على تحسين عمله أو زيادة ربحه من صنعته أو حرفته وفى الحالة الثانية يزيد ثقافته العامة و يكسب تعريفا جديدا بأحوال بلاده ومنتجاتها . فيتفتح ذهنه لتفكير فى حاضرها ومستقبلها . وربما صححت له هذه المعلومات أخطاء قديمة وأفكارا كان يعتنقها ولها فى نفسه مكان العقيدة والايمان .

وكان بين زوار المعرض كثيرون من التجار والصناع والزراع فهؤلاء أفادوا من غير شك ثقافة جديدة . وكان بينه آلاف من الطلبة والمدرسين والمحامين والأطباء والمهندسين فهؤلاء جمعوا إلى معلوماتهم القديمة معلومات جديدة عن ثروة بلادهم وجهد العامل والزارع والتاجر فى تكوينها . وكل واحد من هؤلاء لم يعدم من جانب هذه الفائدة العامة فائدة خاصة يجنيها وتفيده فى عمله إن لم يكن فى الوقت الحاضر ففى المستقبل فأى طالب زار المعرض ولم يجد فيه ما يستوقف نظره مما يتصل بدراسته ومدرسته ، فقد كانت فيه هندسة وطب وزراعة وأشغال وتجارة وصناعة وفنون وآداب . وأى طبيب وأى محام وأى مهندس وأى كاتب أو صحافى أو خطيب جال فى المعرض ولو جولة واحدة دون أن يجنى لنفسه فائدة ثقافية خاصة ؟ أى واحد من هؤلاء لم يجد ما يستوقف نظره وقد جمع المعرض جهد أمة بأكمله فى جيل بأكمله ؟

إن فائدة المعرض الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كانت واضحة غاية الوضوح ، وقد أثار الحديث بين الزوار فى كثير من الموضوعات ، وجعلهم يفكرون فى الكثير مما تنتج بلادهم وفى الكثير مما تصنع ، وجعلهم يتباحثون فى حاضرها ومستقبلها ، ووضع أمام أنظارهم بصورة محسوسة فصائل شعبهم القومية وفضائله التاريخية والتقليدية . وضع أمام أعينهم عناصر التقدم والتحفز للنهوض والسير إلى الأمام ، فدفع إلى صدورهم الايمان بمستقبل مصر ومجدها .

فؤاد أباظه